جامعة الانبار
كلية الاداب - قسم الاجتماع
art.platooplatoo@uoanbar.edu.iq

الفلسفة السياسية عند زيجمونت باومن

حسين عبدعلي اجريدي لفتة البيضاني
Hussein abd ali igreedy lafta al bedhni

مستخلص

يناقش البحث سلسلة من المفاهيم التي طرحها زيجمونت باومن والتي ينتقد فيها مفاهيم الحداثة، والتي يقول عنها بأنها مفاهيم سائلة ولا يمكن أن تكون هذه المفاهيم حقائق وهي مشكلة حقيقية بالنسبة للإنسان المعاصر. هذه المفاهيم هي: السياسة السائلة، الخوف من المجهول، العزل، التخفيض، والابادة، والحرب والتدمير. كل أشكال مفاهيم النهضة، والتنوير، والحداثة.

الكلمات المفتاحية : زيجمونت باومن، الحداثة،الخوف السائل، السياسة السائلة.

Abstract

The research discusses a series of concepts put forward by Zygmunt Bauman, in which he criticizes the concepts of modernity, which he says are fluid concepts and that these concepts cannot be facts, which is a real problem for modern man. These concepts are: fluid politics, fear of the unknown, isolation, reduction, annihilation, war and destruction. All forms of the concepts of Renaissance, Enlightenment, and modernity

key words: Zygmunt Bauman, modernity, the Holocaust, liquid fear, liquid politics

المقدمــة

البحث في أشكال المفهومات السائلة عند زيجمونت باومن (1927-1925) فيه نوع من التعقيد، لكونه يناقش موضوعات الحداثة من منطلق التحويل الفكري للمكثف والصلب الى السائل والمرن. وتمتاز هذه المرحلة التحولية بالنقد المكثف لكل أفكار الحداثة ، والتقنية ، وفيضان المعلوماتية، والانغماس في التعميم ، وتضخيم الأمور من طريق الاعلام الرقمي، وتنشيط مفهوم الاستذكار والنسيان مثال ذلك ظهور أحد المشاهير الذين طوتهم صفحة النسيان زمناً طويلاً، أو حتى تظهر مقطوعة موسيقية لم يسمعها الناس زمناً طويلاً، أو حتى يظهر عدد وافٍ من الذكريات السنوية لكاتب أو رسام طوته صفحة النسيان. وبما أن المصائب شائعة، فلم يعد الفقدان شيئاً قاتلاً، فهذا الفقدان أو ذاك إذا حدث فإنه يكون على الأرجح قابلا للنسيان، مثلما أثبتت أشياء أخرى عديدة قبله أنها قابلة للنسيان.(باومن: زيجمونت: الخوف السائل، ص29). هذا هو مجتمعنا الحديث السائل. ففعل التذكر هذا انما هو فعل في قمة الانانية، فأن تكون

طي النسيان، وتزول كأنك لم تكن، أو يتم القضاء عليك، أو تهجيرك، أو إزالتك، ثم تذكرك في محاولة لتخليدك بعد فوات الأوان. هذا الامر قمة في الوحشية. مثال ذلك فوز أحد الشعراء بجائزة أدبية فحين وجه إليه السؤال عما سيفعله في الجائزة الممنوحة له؟ فيجيبهم بانه سيقوم بعدة زيارات لعدة مستشفيات من أجل متابعة حالته الصحية المتدهورة بعد قضاء عطلة طويلة في مستنقع الفقر وعدم توفر السيولة النقدية قبل استلامه الجائزة. فكل مفهومات السيولة متوفرة في هذا العالم الا السيولة النقدية. كثيراً ما نسمع بان الفنان فلان أو الشاعر فلان مات فقيراً أو بسبب العوز إلى يومنا هذا. وحسب باومان بأن الفقدان لم يعد قاتلا، وقابلاً للنسيان مثلما أثبتت أشياء أخرى قبله، بأنها قابلة للنسيان.

يبدو لنا أن المفهومات التي طرحها باومن تعد مهمة للغاية فهي موجهة بشكل مباشر الى تحريك الانسان نحو رفض السياسات المفروضة علينا، مثال ذلك ماهو متوفر وما تمت المو افقة على نشره لنطلع عليه. فنحن نمتلك الحق الكامل في الاطلاع على حقائق هذا العالم بشكل جلي وواضح، لكي نشعر بأننا قادرين على السيطرة على حياتنا، والحذر قبل الوقوع في المأزق و إنقاذ أنفسنا، والنفاذ بجلودنا من الخطر الذي يحيطنا من كل جانب. فحسب باومن بأن هذا العصر الذي يسمى بعصر الحداثة السائلة فيه من الخطورة ما لم نكن نتصوره أو نتخيله في يوم ما، لكننا تعودنا عليه، أو تم إسكاتنا، وعدم مقاضاة المسببين بهذه المخاطر التي تحيط بنا. من طريق تحديد قدراتنا عبر النظام العام المفروض من قبل القائمين عليه وسياستهم في تسيير شؤون الناس.

أهمية البحث

يركز البحث على شرح بعض المفاهيم التي تناولها الفيلسوف البولندي زيجمونت باومن. وهذه المفاهيم تتعلق بمقولات الحداثة التي وصفها الفيلسوف باومن بأنها المفاهيم السائلة والتي كانت تركز على استغلال الأوضاع الإنسانية عبر تحويلها الى أوضاع سياسية في خدمة السلطة. إذ تكمن أهمية البحث أنها تكشف كيف قام زيجمونت باومن بتعرية بعض المفاهيم التي كانت تلتبس على بعضنا. فهي تتخذ معاني تختلف جذرياً عما تضمره في داخلها. والغاية من هذا الغموض أنها تلتبس أشكال لا تدل عليها من أجل أن تكون في خدمة سياسة السلطة التي تهدف إلى الهيمنة على الافراد من طريق تسريب بعض المفاهيم الغامضة إليهم على أنها هي الحقيقة.

مشكلة البحث

يناقش البحث سلسلة من المفاهيم التي طرحها زيجمونت باومن والتي ينتقد فيها مفاهيم الحداثة، والتي يقول عنها بأنها مفاهيم سائلة ولا يمكن أن تكون هذه المفاهيم حقائق وهي مشكلة حقيقية بالنسبة للإنسان المعاصر كونها، هذه المفاهيم هي: السياسة السائلة، الخوف من المجهول، العزل، التخفيض، والابادة، والحرب والتدمير. كل أشكال مفاهيم النهضة، والتنوير، والحداثة.

زيجمونت باومن

حياته:

ولد زيجمونت باومن (1825-1927) لعائلة يهودية فقيرة غرب بولندا نجت من الحرب بعد هروبها الى روسيا مطلع الاربعينيات من القرن الماضي. فقد عانت بولندا من الاجتياح النازي الامر الذي دعا الكثير من العائلات اليهودية مغادرة البلاد الى الاتحاد السوفيتي. لذلك نجده يقول في وصف العناء الذي تعرضوا له " عجيب ذلك الارتياح الذي نشعر به وإن كان شائعاً ومألوفاً، وعجيب ذلك التدفق المفاجئ لطاقتنا وشجاعتنا عندما نواجه في نهاية المطاف الخطر الحقيقي، ذلك الخطر الذي يمكن أن نراه عين اليقين بعد زمن طويل من الازعاج والقلق، والهواجس المظلمة، والتوجس والارق. وقد لا تكون هذه التجربة عميقة كما تبدو إذا أدركنا اننا اقتربنا من معرفة من كان يقف وراء ذلك الشعور الغامض المزمن باقتراب وقوع شيء مخيف، شيء ظل يعكر صفو الأيام التي كان ينبغي أن نستمتع بها ، ولكننا لم نستطع الاستمتاع بها، ولم نذق فيها طعم النوم...أما وقد علمنا مصدر الضربة، فإننا نعلم ما يمكننا أن نفعله، أو اننا على الأقل محدودية قدرتنا على اجتناب تلك الضربة، وعلمنا الخسارة أو الجرح الذي لابد أن نتقبله(باومن: الخوف

السائل، ص23). يمكن لهذا النص أن يوضح العناء الذي تعانيه فئة ، أو مكون عانى كثيراً من الاضطهاد والعنصرية في العالم بشكل عام، فليس من حق أي فئة اضطهاد أي مكون والسعي الى ازالته نهائياً من الوجود وكأنك تكافح الحشرات التي تعيش في حقلك، فالعالم ليس ملكاً لأحد وكل أشكال الاضطهاد مرفوضة وبشكل جذري.

الحداثة وغياب اليقين

يقول باومن: " كانت الحداثة هي القفزة الى الأمام بعيداً من ذلك الخوف إلى عالمٍ خال من القدر الاعمى المغلق. ومن ذلك الموطن الطبيعي الذي تنمو فيه المخاوف، فكان فيكتور هيجو يتحرق شوقاً، ويتغنى بزمن يقودنا فيه العلم، ويتحول فيه المنبر السياسي إلى منبر علم (باومن: الخوف السائل،ص24). غير ان ذلك لم يحدث أبداً وقد حدثنا سارتر في روايته التي بعنوان (الغثيان) وعلى لسان بطل روايته الغثيان الذي يصف الوجود بأنه شعور قلق، شعور بغياب اليقين والأمان (ينظر: اليوسفي: نقد الادب الوجودي للحضارة الغربية المعاصرة، ص130). وهذا ما يؤكده باومن من خلال قوله "مع اقتراب ميلاد عصرنا الحديث الذي تلفه عبارة شهيرة بليغة هي: الخوف دائم في كل مكان"(باومن: الخوف السائل، ص24). "ان الذي أوصل أجواء الحضارة الى هذه الوحشة، هو القصور البشري المجتمعي، وسوء استعمال العقل للأغراض الإنسانية، وغياب الهدف، حتى بدا لهم انهم كالعميان وقد ضيعوا طريقهم لإيجاد الحياة التي فقدوها، فباتوا سجناء سوء سلوكهم وطاعتهم للتاريخ والقدر الذي أحاط بهم"(اليوسفي: نقد الادب الوجودي للحضارة الغربية المعاصرة،ص131). لذلك" نحن نعيش في عالم حديث لا يعترف الا بيقين واحد، ألا وهو اليقين بان الغد ليس ما يمكن أن يكون، ولا يما ينبغي أن يكون، بل ما يكون، وما يكون اليوم تحديداً، فلابد من التدريب المستمر على الاختفاء، الذوبان، ضمناً التدريب على لا نهائية الموت، والتدريب على الاحياء والبعث من جديد"(باومن: الخوف السائل ، ص28). وقبله نيتشه الذي يرى" ان الثابت لدينا هو أنه لا يحق لنا أن نضع أنفسنا في موضع عصر النهضة، وحتى أن نتمثل أنفسنا داخله: فأعصابنا لا تملك القدرة على تحمل مثل ذلك الو اقع، هذا العجز لا يدل على أي تقدم ، بل على بنية مغايرة فحسب، بنية أضعف، ألين، وأكثر هشاشة، من منطلقها أصبح وضع أخلاق قائمة على المراعاة والمداراة أمراً ضرورياً. واذا ما طرحنا من ذهننا مسألة لينا وتأخرنا الزمني وشيخوختنا الفسيولوجية، فإن أخلاقنا الانسانوية ستجد نفسها مباشرة مجردة من كل قيمة، ليس هناك من أخلاق ذات قيمة في ذاتها، ولن تثير فينا، نحن أنفسنا غير مشاعر الاحتقار".(نيتشه: غسق الاوثان، ص142) .

ان توقعات المفكرين بقدوم عصر جديد تتحول فيه الهموم السياسية ، الى انشغالات إنسانية كانت مخيبة للآمال جداً. فقد العالم جزء كبير من منظومته الأخلاقية ليستبدلها بمنظومة مادية جديدة مملوءة بالكراهية تجاه الاخر المختلف ، وهيمنت عليهم فكرة المركزية التي تحاول إخضاع كل شيء وفق مبدأ القوة مما خلق أجواء مشحونة بالعنصرية والكراهية، أدت الى نشوب حربين كبيرتين ساهمتا في تدمير الآمال في و اقع أفضل، بل أن الامر خيبة كبيرة للكثيرين، على وجه الخصوص المكونات التي أرادت الخروج من هيمنة الاحياء المحددة الى المجتمعات الكبيرة، مثال ذلك الدعوات اليهودية للاندماج في مجتمعات اوربا.

السياسية اليهودية

طبيعة العقل الشرقي العربي دائما تسير نحو تلقين الغرب دروساً لفظية ، ومحاولة عجن الثقافة الاوربية بخليط الدسائس والمكائد التي يتربصون بها للشرق، دون اللجوء إلى حلول جذرية وحقيقية. استمرت هذه النقديات الأدبية إلى يومنا هذا كلمة هنا، وكلمة هناك تصدح لتدين استغلال السياسة (الإسرائيلية) للهولكوست وذكرياتها المأساوية لتبرير شرعيتها في سياستها(ينظر: أبو جبر، حجاج: نقد العقل العلماني،ص169). وتفضح هذا الفعل الكثير من الاعمال الأدبية مثال ذلك الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني (1936-1972) في روايته (عائد إلى حيفا) إذ يدور حوار بين ألاب سعيد و ابنه المفقود خلدون والذي وجده بعد عشرين عام والذي يجده في نفس بيته الذي تركه حين غادره مجبراً ، ثم عاد إليه بعد هذه السنوات الطويلة ليجده تحت رعاية عائلة يهودية واسمه (دوف) من الأسماء اليهودية، وثقافته يهودية، و انخرط في صفوف الجيش الإسرائيلي. فيسأله:

"-أنت في الجيش ؟ من تحارب؟ لماذا؟

دوف: ليس من حقك ان تسأل هذه الأسئلة. أنت على الجانب الآخر.

وحيث قالا لي أن والدي عربيان لم يتغير شيء. لا لم يتغير شيء ذلك مؤكد عن الانسان في نهاية الامر هو قضية." (كنفاني،غسان: عائد الى حيفا، ص67).

أن هذا النص يوضح شكل وحجم العداء الذي نشأ في فلسطين بين العرب المسلمين واليهود المستوطنين، فالكاتب يشير الى انهم لم يسرقوا الأرض فقط بل سرقوا الذكريات، وسرقوا الأبناء وجندوهم ليكونوا أشبه بكلاب حراسة (لموطن) اليهود الجديد بعد الهولوكوست. لذلك يقول الشاب (دوف):

-"انني الان في قوات الاحتياط ، لم يقدرلي خوض معركة مباشرة إلى الان لأصف لك شعوري، ولكن ربما في المستقبل أستطيع أن أؤكد لك مجدداً ما سأقوله الآن: انني انتمي إلى هنا، وهذه السيدة هي أمي، و انتما لا أعرفكما موجها كلامه الى أبويه الأصليين ، ولا أشعر ازاءكما بأي شعور خاص. فيرد عليه الاب سعيد: لا حاجة لتصف لي شعورك فيما بعد، فقد تكون معركتك الأولى مع فدائي اسمه خالد، وخالد هو ابني أرجو ان تلاحظ أنني لم أقل أنه أخوك، فالإنسان كما قلت قضية، وفي الأسبوع الماضي التحق بالفدائيين. تعرف لماذا أسميناه خالد ولم نسمه خلدون؟ لأننا كنا نتوقع العثور عليك ولكن ذلك لم يحدث. ولا أعتقد اننا سنعثر عليك"(كنفاني، عائد الى حيفا، ص69). في هذا الموقف يصف لنا كنفاني كم الانفعالات والغضب الذي يحرك شخصيات الرو اية ، وكم أن العقل اصبح للأسف عبداً للانفعالات والانحياز ومشاعر الكراهية. فأول الامر رفض الابن المفقود الاعتراف بوالديه حين وصلا إليه بعد كل هذه السنوات ، ومن ثم اعتراف هذا الابن بانه لا يحمل أي مشاعر إزاء هذين الابوين الجديدين ، فهو لم يجد حوله غير أبويه اليهوديين (إفرات ومريام) اللذين احتضناه وربياه ليكون سندهما في المستقبل، وهو بالتالي الراعي الجديد لمستقبل الدولة اليهودية. وثانيا اعتراف الاب بأنه سيضحي بأبنه الثاني من أجل الفوز بالقضية ، على الرغم من أنه في أحداث الرو اية كان قد رفض طلب إبنه خالد في الانضمام الى الفدائيين خوفاً، وهو خالف حقيقة الو اقع الذي حدد طموحات إبنه خالد، لكنه بعد أن رأى موقف (دوف) تغيرت أخلاقه وأصبح نادما لأنه وقف في طريق ابنه خالد وسلط عليه سوط الابوة المرتجف من فقدان الابن الثاني، لكن سرعان ما ذاب هذا الموقف وزال و انتهى في سيلان أبدي. هذه هي الاخلاق السائلة التي يتحدث عنها باومن تحديداً، أخلاق الانسان المعاصر التي يتخللها الخوف من الاخر، المختلف والتي أصبحت ظاهرة شائعة الى حد ما في كل زمان ومكان، ما زال هذا الموقف أكثر شيوعاً في عصر الحداثة، وهو عصر زادت فيه المو اقف والتجارب التي تخرج عن السيطرة وأصبحت تعتبر على أنها موقف خبيث(باومن، زيجمونت: الحداثة والهولوكوست،ص135). هذه هي عداوة الانفصال عن الحدود الاجتماعية. في هذه تحديداً تبدو مشاعر الكراهية والضغينة أقرب الى الدو افع الانفعالية لعملية الانفصال"(باومن: الحداثة والهولوكوست، ص37). يقول (دوف): "لقد مضت عشرون سنة يا سيدي! عشرون سنة ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا. عاجزون ! عاجزون ! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من الجهل والتخلف والشلل! لا تقل لي انكم امضيتم عشرين سنة تبكون! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات! كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقاً صغيراً يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود...ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي... أهذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك التافه المغلول"(كنفاني، عائد الى حيفا، ص74-73). يرد الاب سعيد: " بان ذلك لا يبرر لك شيئاً، إن خطا زائد خطأ لا يساويان صحاً، ولو كان كذلك لكان ما حدث لإفرات ولمريام في أوشفيتز صو ابأن ولكن متى تكفون عن اعتبار ضعف الآخرين واخطائهم مجيرة لحساب ميز اتكم ، لقد اهترأت هذه الاقاويل العتيقة هذه الحسابات المترعة بالاخاديع..مرة تقولون ان اخطاءنا تبرر أخطاءكم، ومرة تقولون أن الظلم لا يصحح بظلم آخر... تستخدمون المنطق الاول لتبرير وجودكم هنا، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه. ويخيل لي انكم تتمتعون إلى أقصى حد بهذه اللعبة الطريفة"(كنفاني، عائد الى حيفا، ص75). النص الأخير يكشف بوضوح الاستخدام السياسي للهولوكوست ، وجعله حجة منطقية لصناعة وجود في مكان وتجديد فعل الإبادة على مجتمعات اخرى ولكن هذه المرة

الإبادة لا يتعرض لها اليهود بل هم الذين يقومون بها مثال ما حدث في فلسطين وهذا ما تكشفه أحداث رو اية العودة الى حيفا. وهذا هو تحديداً عصر الحداثة السائلة الذي يتحدث عنه باومن حين قال:" كان ثمة أمل قبل خمسين عاماً أن تسبب المعرفة البشعة للهولوكوست صدمة توقظ البشرية من نعشها الأخلاقي وتجعل المزيد من الابادات الجماعية مستحيلاً، لم يحدث ذلك. لقد أثبت موروث الهولوكوست القدرة على الاغراء لمزيد من الابادات الجماعية للوصول الى حلول نهائية أخرى في الوقت الذي أدى إلى كراهية تلك الحلول. وبعد نصف قرن، تظل مشكلة تحصين المجتمع ضد مغريات الإبادة مفتوحة على مصراعيها"(باومن، زيجمونت: الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص126). وهذا ما حدث مع إسر ائيل التي قامت بتوظيف الهولوكوست سياسياً وجعل موضوع الاجتياح قانونياً ، وارتكاب المجازر دفاعاً عن النفس(أبو رحمة، أماني: نهايات ما بعد الحداثة، ارهاصات عهد جديد، ص388). أي بمعنى ان إسر ائيل كانت تسعى دائما لتوظيف الاحداث من اجل خدمة مطامعها وهذا ما حدث فعلا في أحداث الرو اية حين يبرر (دوف) موضوع الدفاع عن الأرض والانسان الذي صار قضية. (و ايتلام، كيث: اختلاق إسر ائيل القديمة، ص66).

سياسة الخوف من المصير المجهول

يركز باومن على تلك المفاهيم التي خلقها العصر الجديد والتي يسميها بالسائلة ، فالعالم المعاصر الذي يراه باومن هو عالم الخوف المستمر فهو يقول :" للخوف عيون كثيرة وبوسعه ان يرى الأشياء الخفية"(باومن: الخوف السائل، ص23). لكن هذا الخوف له خواص كثيرة من ضمنها أنه يحقق المعجزات، وفي بعض الأحيان يصنع بعض الابطال الذين يواجهون المخاطر فهو يؤكد بقوله:" سمعنا حكايات عن أناس جبناء أصبحوا شجعان عندما وجدوا أنفسهم في مواجهة خطر حقيقي. فالخوف يأتي في أفظع صوره عندما يكون متفرقاً، ومنتشراً، وغامضاً، ومشتتاً، ومتقلباً، وعائماً، من دون عنوان واضح، من دون سبب واضح، وعندما يستحوذ علينا من دون سبب معقول، وعندما نشعر بالخطر الذي نخافه في كل مكان ، ولا يمكن ان نراه في أي مكان. إن الخوف هو الاسم الذي نسمي به جهلنا بالخطر، وبما يجب فعله لمنع الخطر، وبما يمكن فعله لمنعه وبما لا يمكن فعله، أو بما يمكن فعله لصده اذا لم يكن لنا طاقة بمنعه"(باومن: الخوف السائل،ص24).

يبدو أنه من الصعب العيش في محيط لا يمكن الشعور فيه بالأمان نهائياً ، وهذا الخوف يسميه باومن بالخوف المشتق الذي يعرفه بانه " اطار ثابت للعقل، وهو أقرب إلى أثر ناتج عن التعرض للخطر ، أنه شعور بفقدان الأمان فالعالم يعج بأخطار قد تقع في أي وقت بإنذار بسيط أو من دون انذار ، وهو شعور بالعجز فعند وقوع الاخطار ، ليس هناك سوى فرصة ضئيلة ان وجدت أصلا للهرب او الدفاع النجاح، ويصدر افتراض العجز أمام الأنظار، أمام عدم ثقة بالدفاعات المتاحة أكثر من صدوره عن حجم الاخطار الحقيقية أو طبيعتها. واذا ما استوعب المرء رؤية العالم تقوم على الإحساس بفقدان الأمان والعجز، فإنه يلجأ عادة حتى في غياب خطر حقيقي ، إلى استجابات ملائمة من اجل مواجهة مباشرة مع الخطر، وهكذا يكتسب الخوف المشتق قوة دفع ذاتي(باومن: الخوف السائل، ص25).

هذا الامر يجرنا الى تأويلات وتساؤلات كثيرة حول إمكانية تحقق السلام في المجتمعات والوصول الى حالة اليقين الضامن لحياتنا ، وفقدان الشعور بالتهديد ، على الرغم من أننا مع وصولنا الى مرحلة الخوف المشتق فهذا يعني استعدادنا الفطري للدفاع عن انفسنا فلو كانت هناك إدانة من آخر مختلف لنا فأننا لن ندان لنموت فقط بل سنناضل حتى الموت. وهذا ما حدث فعلاً في الراهن إذ حولت السياسة شكل وعودها من حماية السلم المجتمعي الى جعله قراراً فردياً من أجل أن يكون السلم قراراً اجتماعياً، من طريق تحويل الحماية الحكومية للأفراد الى مستوى الحماية الشخصية للأفراد أنفسهم عبر فسح المجال أمام سوق السلاح على سبيل المثال، وهذه السياسة قائمة الان وفي أوجها وهذا هو شكلها الذي يتجاوز ويتجاهل العادات المحلية والإرادة الشعبية والذي صار محلياً ، في حين ان السلطة التي ينبغي أن تقيدها محلية. ثمة فجوة ضخمة بين القدرة على القيام بشيء ما والقدرة على تقرير وتوجيه من بيده السلطة. ان الدولة على سبيل المثال ، أقامت علة وجودها وحقها في امتثال المواطنين لها بالمقابل وعدها بحماية رعاياها من الاخطار التي تهدد وجودهم، ولكنها لم تعد قادرة على الوفاء بوعودها في ظل هيمنة الأسواق التي تتبع

العولمة بوتيرة سريعة وتخرج عن سلطان الدولة يوماً بعد يوم وهكذا تضطر الى تحويل الاهتمام بالحماية من الخوف من الاخطار المهددة للأمن الاجتماعي إلى الاخطار المهددة للسلامة الشخصية، ثم تختزل الدولة المعركة ضد المخاوف إلى عالم سياسة الحياة التي يديرها الفرد بنفسه وتعهد بإمداد أسلحة المعركة إلى الأسواق الاستهلاكية (باومن: الخوف السائل، ص26). هكذا يبقى الفرد في شعور دائم باللايقين ، والتهديد، وفقدان السلم المجتمعي. والمخاوف المشتقة تنقسم إلى ثلاثة فئات:

الفئة الأولى : فئة تهدد دوام النظام الاجتماعي والثقة به.

الفئة الثانية: تلك التي تهدد الجسد والممتلكات.

الفئة الثالثة: تلك التي تهدد موقع المرء من العالم مكانته الاجتماعية وهويته، الطبقة، النوع ، العرق ، والدين، وبوجه أعم حصانته من الامتهان والاقصاء الاجتماعي.(باومن: الخوف السائل، ص26). وهذه هي سياسة الخوف التي تفرض نفسها على الفرد في حياتنا المعاصرة.

السياسة العرقية

كان اليهود مستعدين للاندماج في مجتمعات أوربا، وترك حدود العزل الاجتماعي والعيش في الجيتو (الحي اليهودي) ، والانخراط في الحياة المدنية كمواطنين بدعوى من موسى مندلسون (1786-1927) ، الذي دعا الى ما يسمى بحركة التنوير اليهودية ونبذ عقلية الجيتو، وتعلم الفنون العلمانية كسياسة جديدة لإنخراط اليهود في جعلهم مشتركين في إدارة شؤون الدول التي يعيشون فيها كمواطنين طبيعيين، زيادة على ذلك ارسال الأطفال الى مدارس الاغيار والحصول على التعليم العلماني. (الشامي، رشاد: الشخصية اليهودية "الإسرائيلية " والروح العدوانية، ص39). كل هذه الدعوات لم تنجح بشكل تام، بل حتى انها فشلت بشكل ذريع أمام الواقع والسبب يعود الى افراد من داخل المجتمع اليهودي كانوا يرفضون هذه الدعوات من اجل قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين ، وهذا هو دافع سياسي أساسي في هذه العملية ، والسبب الثاني يرجع إلى الاغيار من المجتمعات ، وهؤلاء كانوا يراقبون مجرى التاريخ ويولونه أهمية قصوى وكانوا شديدي الملاحظة ، و أيضا كانوا حريصين على أن لا يحصل هذا الاندماج بدافع الكراهية ، وسياسة العنصرية ضد اليهود على اعتبار انهم غرباء يجب عزلهم ، وكراهية التواصل معهم كمهمة كونية.(باومن: الحداثة والهولوكوست، ص132).

سياسة العزل قبل الابادة

يذكر باومن في كتابه الحداثة والهولوكوست "ان اللاهوت المسيحي لم يحرض يوما على إبادة اليهود، بل دعا الى عزلهم عن المجتمع باعتباره الشعب الشاهد الذي عليه أن يقرر مصيره، وكان العزل داخل الجيتوات يسبق في ذلك الأهمية القضاء عليهم"(باومن: الحداثة والهولوكوست، ص310). وهذا دليل على أن العنصرية تكسب اهتماماً ملحوظا بين أشكال العداء بين الجماعات، وهي وحدها تكشف عن صلة القرابة بالروح العلمية للعصر. (باومن:الحداثة والهولوكوست، ص132). فبعد مجيء عالم لا طمأنينة فيه ، و انتشرت سياسة العزل وفرض أشكال التحامل بين الجماعات على أنها تجليات لنزعات عنصرية طبيعية فطرية بدأ الخراب يلوح في الأفق، وبدأ الموت يتحول إلى حالة موقتة حتى إشعار آخر، مثل كل شيء في الحياة الحديثة السائلة(باومن:الخوف السائل، ص29). وهدف هذا العزل يرمز في الوعي إلى تلك المنطقة التي ما زالت تستعصي على التطويع الثقافي، في عصرنا الذي يتسم باصطناعية النظام الاجتماعي، والقدرة المطلقة للتربية والتعليم، والقدرة غير المحدودة لعصر الهندسة الاجتماعية. رغم ذلك ان الشكل العلمي الحديث للعنصرية لا يبدو مختلفاً في طبيعته وآليته عن الخطاب التقليدي للاقصاء والذي يسقط حقوق الآخر واهليته، ويتمركز حول جنون الاضطهاد (باومن: الحداثة والهولوكوست، ص134).

سياسة بناء دولة عرقية

كانت أحداث العصر المتسارعة ، والاكتشافات العلمية الرهيبة ، وتحول النشاطات الإنسانية، الى آلية بيروقراطية ، كفيلة بخلق نوع من أجواء الشر داخل نفوس الافراد، فالعالم المعاصر الغارق في المادية ، الذي أضاع انسانيته

بين طيات الآلات لم يكن متوقعاً منه سوى البحث عن أدوار عنصرية، من اجل إعادة روح الصيد والاقتناص التي فطروا عليها. كان اليهود هذه المرة هم الهدف من هذه العملية فكانوا ينظرون إليهم بإحتقار كبير وبأن القضاء عليهم و إبادتهم يوفرون للمجتمعات خدمة كبيرة، والسبيل لاستعادة صحتنا هو إبادتهم عن بكرة أبيهم (باومن: الحداثة والهولوكوست،ص144-143). ويرى باومن أن السياسة كانت أكثر بشاعة إذ لم يجد النازيون سبباً لقصر سياستهم على الأجيال القادمة، بل بذلوا الجهد والموارد عبر تحسين الجيل المعاصر لهم. وكان أسرع طريق لتحقيق هذا الهدف هو الإزاحة العنيفة لكل كائن أو حياة عديمة القيمة. وكانت الملابسات تقتضي استخدام مصطلحات مثل الإزالة، والتخلص، والاخلاء، والتخفيض، وجميعها يعني إبادة (باومن: الحداثة والهولوكوست، ص138). وهذا يعني ان هذا الفعل كان بداعي السيطرة على الحياة ، في مقابل إبادة الآخر المختلف، العصي على التطويع الثقافي. وهذا الامر انما يعبر عن شعور حقيقي عند النازية بالخوف من اليهود على اعتبار انهم يسببون خطراً على المجتمعات. ويرى باومن أن فعل الإبادة هذا لم يكن عشو ائياً بل انه نابع من تخطيط لإرساء شكل هندسي جديد للنظام يتو افق مع العقل وروح الحداثة.(باومن، زيجمونت: الحداثة والابهام، ص56).

مراحل العنصرية عند باومن

يذكر باومن مفهوم الخوف المرضي الآخر المختلف على أنه مرادف للعنصرية ويحدد باومن لهما ثلاث مستويات هي:

- العنصرية الأولية: وهي عنصرية كونية ، وتعد بمثابة رد فعل طبيعي لوجود إنسان غريب او شكل من شكل الحياة الإنسانية التي تثير البلبلة. والاستجابة الأولى للغر ابة هي الكراهية، وهي التي تفضي غالباً إلى العداء والعدو انية.

- العنصرية الثانوية: وهذه تمثل الانتقال من المستوى الأول إلى الثاني أي أنها تنتقل إلى المسوغ العقلاني الموضوعي. مثل ذلك تصوير جماعة للكارهين على انها مهددة لبقائهم. ودعمها بالافكار التي تؤكد ان هذه الجماعة لا أخلاقية، فتكون الجماعة الكارهة مضطرة إلى إلحاق الضرر بالجماعة المكروهة. والخوف المرضي من الآخر الأجنبي هو أن اصله يفوق الأجناس الأخرى ، أي أن ثقافته وشعبه متفوق عن غيره وهو احد الحالات المعاصرة شيوعاً لما يسمى بعنصرية الدرجة الثانية.

- العنصرية من الدرجة الثالثة: هذه هي التي تخفي رهانات سياسية محضة ، وهي تقتضي ضمناً المستويين السابقين، وتتميز بتوظيف براهين ، وحجج شبه بيولوجية.(باومن: الحداثة والهولوكوست، ص133).

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث توصلنا إلى نتائج مهمة تتعلق بالفلسفة السياسية للكاتب زيجمونت باومن، وموضوعاته التي قام بطرحها. إذ أنه يمتاز الى حد كبير في مؤلفاته العديدة بالحيادية والموضوعية ، دون ان نرى أي تحيز إزاء أي قضية معينة على الرغم من انه عانى من الاضطهاد الذي مارسته النازية في بولندا. فقد عانت أوربا في من الإبادة والاقصاء بشكل لا يوصف، وحسب باومن بأن هذا العناء كان يجب أن يصبح مثالاً للمصير الذي يتعرض له المضطهد، و أيضا يجب أن تكون أعمال العنف درساً قاسياً للجميع لكي لا تتكرر الإبادة من جديد، وان لا تعود تلك المشاعر العدو انية من قبل البشر لبعضهم والبعض الآخر، فلسنا كبشر من قررنا اختيار ديننا، ولا عرقنا ، ولا طائفتنا.

يفضح باومن الكثير من الاشكال التي تحولت إليها حياتنا المعاصرة ، مع تقدم هذا العالم شديد التقنية، فهو يكشف لنا الحياة وكيف تحولت الى حالة سائلة غارقة في السيولة الجارفة التي تجرف كل ما هو حقيقي نحو المجهول، تجرف الاخلاق الإنسانية، والضمير الإنساني، نحو مستنقعات الكراهية، وتنقعها لتتشبع بهذا العالم الغارق بالقطيعة مع الإنسانية، تجرنا هذه السيول إلى عالم العنصرية والازالة، والعزل، والاقصاء، والتهميش.

يكشف لنا باومن أشكال ومستويات الخوف من الآخر، و أيضا شكل العنصرية ومستوياتها، وتحولاتها من الاشكال البدائية الأولية الطبيعية والفطرية الى مستويات ثانوية، شبه عقلانية ولها مسوغات منطقية يمكن الاعتماد عليها في القضاء على الآخر المختلف، بل حتى تدميره. وهناك المستوى الثالث الذي يمثل تجربة سياسية محضة، فمن طريقه

تتحقق المآرب السياسية في مقابل تدمير الإنسانية وجرها إلى مهازل وحروب دموية ، من أجل تحقيق مكاسب شخصية، او أمراض نفسية، تسحق وتجرف الطرف الاخر، وتمسحه من وجه خارطة المعارضة، بكل الاشكال السائلة التي فرضتها الحداثة والعلمانية الجديدة.

يقدم لنا باومان الدو افع الحقيقية الكامنة خلف المفاهيم التي انتجتها الحداثة، وهي تأخذ شكل الاناء الذي تحتويه لشدة سيولتها ، وهي بذلك تقدم لنا نموذجاً سياسياً عميقاً كامناً خلف كل هذا العماء الذي يمارسه العالم، أذ أن المجتمعات تظن أنها تسعى لتصحيح مسارها عبرهذه الأفعال الدموية التي يجب أن تفهمها على أنها ليست سوى مصالح فردية، وليس لهم منها سوى الموت والمزيد من التضحيات بالمال والبنين. فبمجرد تحويل فتح أبواب الصراع فهذا يعني أن التضحية يقدمها انت و انت لا غير وتبقى السياسة في برجها العاجي غير خاضعة للمسؤولية، فمهمتها تفرض عليها ضمناً نوعا من الاسكات الصامت الذي يخلي المسؤول من المسؤولية إزاء الافراد والمجتمعات.

المصادر

1. أبو جبر، حجاج: نقد العقل العلماني: دراسة مقارنة لفكر زيجمونت باومن وعبد الوهاب المسيري، لبنان، ط1، 2017.
2. أبو رحمة، اماني: نهايات ما بعد الحداثة: إرهاصات عصر جديد، العراق، بغداد، ط1، 2013.
3. باومن، زيجمونت: الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ت: سعد البازعي وبثينة الابراهيم، الامارات،ط1، 2016.
4. باومن، زيجمونت: الحداثة والابهام، ت: حجاج أبو جبر، مصر، ط1، 2018.
5. باومن، زيجمونت: الحداثة والهولوكست ، ت: دينا رمضان، مصر، ط1 ، 2014.
6. باومن،زيجمونت: الخوف السائل، ت: حجاج أبو جبر، تقديم، هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2017.
7. الشامي ، رشاد: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، الكويت ، 1986.
8. كنفاني، غسان: عائد إلى حيفا، بيروت ،ط1، 1969.
9. نيتشه، فردريك: غسق الاوثان" او كيف نتعاطى الفلسفة قرعاً بالمطرقة"،ت: علي مصباح، بيروت، ط1، 2010.
10. و ايتلام، كيث: اختلاف إسرائيل القديمة، ت: سحر الهنيدي، عالم المعرفة، الكويت، ط1، 1999.
11. اليوسفي ،حسين: نقد الادب الوجودي للحضارة الغربية المعاصرة، بغداد، ط1، 2020.

References

1-Abu Jabr, Hajjaj: Criticism of Secular Reason: A Comparative Study of the Thought of Zygmunt Baumen and Abdel-Wahhab Al-Mesiri, Lebanon, 1st edition, 2017

2-Abu Rahma, Amani: The Ends of Postmodernism: Signs of a New Era, Iraq, Baghdad,i1, 2013

3-Baumen, Zygmunt: Ethics in the Age of Liquid Modernity, published by: Saad Al-Bazai and Buthaina Al-Ibrahim, Al-Emarat, 1st edition, 2016

4-Bauman, Zygmunt: Modernity and Obscurity, published by Hajjaj Abu Jabr, Egypt, 1st edition, 2018

5-Baumen, Zygmunt: Modernity and the Holocaust, published by Dina Ramadan, Egypt, 1st edition, 2014

6-Bauman, Zygmunt: Liquid Fear, edited by Hajjaj Abu Jabr, presented by Heba Raouf Ezzat, Arab Network for Research and Publishing, 1st edition, 2017

7-Al-Shami, Rashad: The Jewish-Israeli Personality and the Aggressive Spirit, Kuwait, 1986

8-Kanafani, Ghassan: Returning to Haifa, Beirut, 1st edition, 1969

9-Nietzsche, Friedrich: "The Twilight of Idols" or How We Approach Philosophy by Banging with a Hammer, published by: Ali Misbah, Beirut, 1st edition, 2010

10-Whitlam, Keith: The Differences of Ancient Israel, published by Sahar Al-Hunaidi, The World of Knowledge, Kuwait, 1st edition, 1999

11-Al-Yousifi, Hussein Abd Ali: Criticism of Existential Literature of Contemporary Western Civilization, Baghdad, 1st edition, 2020